وشعراء الاصطلاح جهلاء بالإنسان، لا يدرون ما الأسى ولا يدرون ما السرور، فالواقع أن الإنسان ليرحب بالشبع من النعيم وهو شاكر كما يرحب بالشبع من المائدة وهو شاكر، وترتفع المائدة فلا يحزنه أن ترتفع بعدما استوفى صنوفها وروى أحشاءه من آكالها وأشرباتها وهنأ حواسه جميعًا بما استطاع أن يلتهم من دسمها وحلواها، ومَن شبع من الروضة زهرًا ولونًا وأريجًا وظلًّا فلا بد أن يشوقه أن يغمض عينيه ليشبع منها خيالًا ومراجعةً، ويضع لها صورة مجملة يتأملها ويستبقيها، ويفسح لها مكانًا من متحف النفس تأوي إليه أبد الآبدين بنجوة عن الواقع وطوارق الأحداث؛ انتهى السرور الظاهر فليبدأ السرور الباطن، وذهب السرور العابر فليبقَ السرور الدائم، وتم السرور الذي يملكنا ويؤثر فينا فلننظر في السرور الذي نملكه ونؤثر فيه.

وهكذا ودَّع همام يومه شبعان جد الشبع، قانعًا أوفى ما يكون القنوع في تركيب أبناء الفناء، مستريحًا إلى الوداع كما يستريح الشاكر المكتفي لا كما يستريح السائم الملول، وأغمض عينيه على فراشه تلك الليلة يستعيد ويستجمع ويستمرئ ويتحدى النوم وهو مقبل إليه: أيها النوم، أتحدى أحلامك أن تعطيني فوق ما أخذت اليوم في صحو اليقظة ... وأنا كاسب الرهان على الحالين ...

وتوالت المواعيد بعد الزيارة الأولى على تباعدٍ بينهما في مبدأ الأمر، ثم على تقاربٍ يوشك أن يكون بلا انقطاع.

إلا أنهما اتفقا على أن ينذرا سحابة يوم الجمعة لخلوةٍ كاملةٍ لا مشاركة فيها ولا يعوقهما عنها عائق.

فيومًا على رمال الهرم؛ لأنها تريد أن توقظ الفراعنة!

ويومًا على القناطر الخيرية؛ لأنها تريد أن تحاسب النيل العتيق على عرائسه الغريقات.

ويومًا على زورقٍ بين روض الفرج والروضة، ويومًا في حلوان عند آثار صقارة، ويومًا في صحراء ألماظة، ويومًا في جوار عين شمس والمطرية، فإن لَمْ تكن رياضة خلاء فعكوف في المنزل من الصباح إلى المساء، وذلك أمتع الأيام.

يخلو المنزل نهارها فلا طاهي فيه ولا خادم ولا نزيل غير سارة وهمام، وقد جعلا خدمة المنزل في ذلك اليوم شعائر مقدسة كالشعائر التي يتولاها الكهان، فهما يتبركان بها ولا يخجلان منها وهي في يدها المكنسة وهو في يده سكينة التخريط ... أو هي